

سحيم آل ثاني*

عرض كتاب

A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the Middle East

المؤلف: جيمس بار.

الناشر: دار نشر Simon and Schuster.

تاريخ النشر: ٢٠١١.



* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

جزء من سوريا؛ فقد كانوا لا يريدون أي قوات بريطانية في سوريا بعد الحرب لتسهيل استيلائهم عليها (ص ١٥ - ١٦). ونتيجة لهذه الاعتراضات تنازل البريطانيون عن الخطة مقابل خطة الهجوم على غالبولي فقط (ص ١٥ - ١٦).

التطورات الدبلوماسية الناتجة عن فكرة مارك سايكس: لقد حذر بيكو السلطات من تدخل طرف آخر إن لم تتدخل فرنسا لمساعدة العرب. وفي الأثناء أرادت الحكومة البريطانية أيضًا استغلال مطالبة العرب بالاستقلال عن العثمانيين فجاء رونلد ستورس (سكرتير المشرق في وزارة الخارجية) بفكرة استخدام الشريف حسين لقلب فكرة الجهاد ضد بريطانيا على رأسها، وتلقت وزارة الخارجية البريطانية الفكرة بترحيب، واضطر البريطانيون إلى أن يعدوه بمملكة تضم العراق والأردن وسوريا ولبنان، على الرغم من أنهم قد وعدوا الفرنسيين بسوريا ولبنان (ص ٢٤ - ٢٥). واجتمع رئيس مكتب الخارجية البريطانية آرثر نكلسون إلى جورج بيكو في لندن ليخبره بأخر التطورات مع الشريف حسين. فغضب بيكو من الوعد البريطاني للشريف، واجتمع وزير خارجية فرنسا كامبون إلى اللورد كرو ليشتركي من هدف بريطانيا المتمثل بقيام دولة عربية تشمل لبنان وسوريا، فطمأنه اللورد كرو بأنه إذا ساهمت بريطانيا في قيام دولة عربية فإنها لن تشتمل على تلك الدولتين (لبنان وسوريا)، وترك لديه انطباعًا مفاده أن بريطانيا تريد أن تخدع العرب (ص ٢٩). إلا أن التراجع البريطاني مقابل الضغوط الفرنسية أغضب الكثير من أصحاب القرار في بريطانيا؛ مما أدى إلى انتهاز هيربرت صامويل الصهيوني الأمر، فأوضح أنه يجب على بريطانيا خلق كيان صهيوني يحمي مصلحتها في فلسطين لمنع أي قوة أوروبية من الاقتراب من قناة السويس.

لورنس العرب ومشروع الدعم البريطاني للشريف حسين: التقى لورنس مك ماهون (رئيس الاستخبارات لدى كتشنر) وأقنعه بضرورة دعم العرب، فشعر الفرنسيون بتهديد كبير من دعم بريطانيا للشريف حسين؛ لهذا اقترح رئيس وزراء فرنسا أن تساعد فرنسا الثوار حتى لا يهاجموا مصالحها في حال نجاح ثورتهم (ص ٤٠). وبعد ابتداء ظهور الثورة كان على البريطانيين اختيار مرشح من أبناء الشريف ليتولى الحكم في الشام، وانحصر الاختيار على فيصل وعبد الله، وكان عبد الله أقوى شخصية من أخيه؛ لذا كان فيصل هو المفضل بالنسبة إلى البريطانيين. ويكمن السبب في اختياره أيضًا، في أن طموحات عبد الله كانت في توحيد اليمن والحجاز، في حين كان

كتاب *A line in the Sand: Britain, France and the struggle that shaped the Middle East* هو كتاب تاريخي يتحدث عن العلاقات البريطانية الفرنسية في الشرق الأوسط. ومؤلفه هو James Barr، وقد صدر هذا الكتاب عن دار النشر Simon and Schuster في المملكة المتحدة سنة ٢٠١١، ويقع في ٣٧٧ صفحة مقسمة إلى أربعة أجزاء تكون ٢٩ فصلًا، يليها فهرس وقائمة مراجع حتى صفحة ٤٥٤. وهذا الكتاب هو الكتاب الثاني للكاتب James Barr، وقد كان كتابه الأول هو *Setting the Desert on Fire*، وهو ويتناول موضوع دور بريطانيا ولورنس العرب في الثورة الهاشمية ضد العثمانيين.

أما الكتاب الذي نحن بصددده فهو مقسم بحسب التسلسل الزمني للأحداث، فالجزء الأول المسمى *The Carve Up: 1915-1919* خصّصه الكاتب للعلاقات البريطانية الفرنسية وسياستهما في المشرق العربي أثناء الحرب العالمية الأولى ومعاهدة فرساي. وأما الجزء الثاني *Interwar Tensions: 1920-1939* فقد خصّصه للعلاقات البريطانية الفرنسية في المشرق في الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. وأما الجزء الثالث *Secret War: 1940-1945* فهو يتناول التضارب بين المصالح البريطانية والمصالح الفرنسية في الشرق الأوسط، على الرغم مما بين البلدين من وفاق في أوروبا، وفي الحرب ضد ألمانيا النازية. وفي الجزء الرابع من هذا الكتاب *Exit 1945-1949* يتناول الكاتب موضوع خروج بريطانيا وفرنسا من المنطقة ودورهما في إنشاء دولة إسرائيل.

مشروع تقسيم الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا: عندما اجتمع مارك سايكس إلى النخبة السياسية البريطانية في (مكتب رئيس الوزراء البريطاني) كان ضمن الحضور أهم أربع شخصيات على المستوى الدولي؛ وهم أسكويث رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، وكتشنر وزير الدفاع، ولويد جورج وزير العتاد الحربي، وبلفور رئيس الوزراء المحافظ السابق (ص ١١) وقد طرح سايكس عليهم فكرة رسم خط على الخريطة لتقسيم المشرق العربي من حرف E في Acre إلى حرف K في Kirkuk، على أن تذهب كل المناطق الواقعة جنوب الخط إلى بريطانيا، والمناطق الواقعة شمالها إلى فرنسا؛ وذلك حتى لا تحدث خلافات بين بريطانيا وفرنسا في حال سقوط الإمبراطورية العثمانية (ص ١٢). وقرّر البريطانيون تنفيذ هذا مشروع بتوجيه ضربه قاضية إلى العثمانيين بهجوم كامل على لواء الإسكندرون وغالبولي في آن واحد، لكن الفرنسيين عارضوا فكرة الهجوم على لواء الإسكندرون لأنه

فيصل ينظر شمالاً إلى الشام والعراق، فاتفق ذلك مع وجهة نظر البريطانيين (ص ٤٣).

تقدم الثوار ودخول الجنرال اللنبي إلى الساحة: شعر الفرنسيون، بعد استيلاء جيش الشريف على العقبة، بعدم الارتياح؛ إذ إنهم أدركوا أنَّ الجيش المتقدم لن يراعي الخطَّ المرسوم في معاهدة سايكس بيكو. وأمَّا الجنرال اللنبي فقد خاف من أن يستغل الأتراك سكك الحديد التي تصل إلى الحجاز لتوجيه ضربة إلى جيشهم من الخلف، لذا اقترح لورنس استخدام حرب العصابات لتدمير سكك الحديد (ص ٥١). ولكنَّ العرب تقدموا بسرعة نحو دمشق واستولوا عليها. فاعترف البريطانيون لفصيل أنهم وعدوا فرنسا بدمشق ممَّا أثار غضبه وغضب جيشه، بسبب عدم وجود أيِّ قوات غير عربية على الأرض؛ ممَّا اضطر الفرنسيين إلى ألا يحاولوا إخراج العرب وإرسال جيشهم إلى لبنان فحسب، بل إلى الاتفاق مع البريطانيين على إخراج الجيش العربي في الوقت الملائم (ص ٦٢ - ٦٣).

نقط الموصول: وصلت إلى سكرتير رئيس وزراء بريطانيا موريس هانكي رسالة من أميرال البحريَّة تطلب منه الحرص على الاستيلاء على الموصول لاحتمال وجود النفط فيها. فاتفق لويد جورج وبولفر على أن يربط دُعْم بريطانيا لاستعادة فرنسا محافظة ألساس - لورين بتنازلها عن الموصول، واقترحا هذا الأمر على السفير الفرنسي قبل زيارة كلمنصو للندن، فوافق كلمنصو على الشروط التي تقدَّم بها. (ص ٧١ - ٧٢).

الرئيس الأمريكي ولسون وحقَّ الشعوب في تحديد مصيرها: ارتبك البريطانيون من احتمال التصويت المتعلق بالانتداب البريطاني في فلسطين والعراق؛ إذ أشارت معلوماتهم إلى أنَّ هناك توجهًا استقلاليًّا قوميًّا قويًّا وخاصة في بغداد. وما أربكهم أكثر فأكثر هو احتمال ضياع الموصول من بين أيديهم (ص ٨١ - ٨٢). وفي هذا السياق التاريخي كانت هناك خلافات كبيرة بين بريطانيا وفرنسا بشأن مصير فلسطين وسوريا، وعلى الرُّغم من ذلك اتَّفَق البريطانيون والفرنسيون على أطراح مشاكلهم جانبًا في مواجهة الضغط الأمريكي المتعلِّق بحقَّ الشعوب في تقرير مصيرها.

(ص ٨٧ - ٨٩)، ولكن بقيت إشكالية واحدة هي رسم حدود فلسطين، فوافق الطرفان في النهاية على أنَّ الحدود الطبيعية لفلسطين هي جنوب مدينة صور اللبنانية (ص ٩٠). واجتمع بعد ذلك وزير خارجية فرنسا غورو إلى فيصل في باريس وقال له إنَّه لن يقبل أيِّ محاوله من العرب لفرض سيطرتهم على سوريا، وبعدها طلب كلمنصو من غورو وُضِع جندي فرنسي مقابل كلَّ جندي بريطاني في المشرق (ص ٩٢).

إخضاع السلطة الفرنسية لسوريا: كان فيصل في باريس للتفاوض مع كلمنصو عند وصول غورو إلى باريس، فعرض عليه كلمنصو أن يكون ملكًا رمزيًّا، على أن تبقى كلَّ السلطة لفرنسا، فرفض فيصل هذا العرض تاركًا الفرنسيين في وضعٍ حرجٍ؛ لأنَّه لم يكن ثمة سبب لإعلان الحرب عليه وإخراجه من سوريا (ص ٩٧). ولكن وجد الفرنسيون الذريعة المطلوبة عندما اشتبكت قوات فيصل مع الفرنسيين في بعلبك. فقامت ثورة في الشام وأعلن المؤرَّع السوري العام أنَّ فيصل هو ملك سوريا وفلسطين، وأنَّ أخاه عبد الله هو أمير العراق (ص ٩٨)، وغَضِبَ الفرنسيون من هذا الأمر وطلبوا من بريطانيا الوساطة، غير أنَّ البريطانيين رفضوا هذا الطلب؛ فابتكر الفرنسيون خطة: فإمَّا أن يدعموا الانتداب البريطاني لفلسطين مع تخلي الملك فيصل عن الشام، وإمَّا أن يدعموا القرار الأمريكي في حقَّ شعب فلسطين في تقرير مصيره، فاضطر البريطانيون حينئذٍ إلى التراجع (ص ٩٩).

الثورة في العراق ١٩٢٠: قامت الثورة في العراق بسبب عدم تنفيذ بريطانيا وُعدها المتمثل بترك المجال مفتوحًا للعراقيين في تكوين حكومتهم، وكان هناك سببان يُمْنعان بريطانيا من تنفيذ وعدها. فالسبب الأوَّل هو خشية البريطانيين حدوث مشاكل طائفية قد تجعل مسألة استقرار العراق وحصول بريطانيا على نفط العراق من الأمور الصَّعبة. وأمَّا السبب الثاني فهو يكمن في أنَّ فرنسا لم ترد أيِّ حكومة مستقلة أو شبه مستقلة في العراق حتى لا يُطالب السوريون بالأمر نفسه، ثمَّ إنَّ بريطانيا كانت في حاجة إلى الدعم الفرنسي لتتمكَّن من الاستيلاء على الموصول (ص ١٠٦). وأشعل إعلان المؤرَّع السوري المتعلِّق بتسليم فيصل مملكة العراق قاتل الثورة في العراق. وبما أنَّ بريطانيا لم تكن تمتلك القوة البريطانية اللازمة لإخماد الثورة فقد قررت التراجع من المدن (ص ١٠٧)؛ فانتفض لورنس العرب الفرصة، مقترحًا أن يكون الملك فيصل حلًّا للأزمة قائلاً في صحيفة الأوبسرفر: "إنَّه أعظم قائد عربي منذ صلاح الدين" (ص ١١٢). وكان لورنس من أشد منتقدي الحكم البريطاني في العراق فقرَّر ونستون تشرشل تعيينه مستشارًا لكسبه حليفًا (ص ١١٦)؛ ممَّا فتح الباب لدخول الملك فيصل إلى الساحة.

الاتفاق البريطاني مع فيصل ليصبح ملكًا للعراق: بدأ المشروع عندما أعطى مجلس الوزراء البريطاني كرزون صلاحية التفاوض مع فيصل، فأخبرهم فيصل أنَّه لا يُمانع طالما أنَّ أخاه عبد الله لا يريد عرش الحكم (ص ١١٩)، وانتهى الاجتماع بالاتفاق على أنَّ يحصل الأمير فيصل على عرش العراق والأمير عبد الله على عرش الأردن (ص ١٢٠). ولكن لم تعجب الصهاينة فكرة استيلاء الأمير عبد الله على عرش

مسار أنابيب النفط بعد استكشاف النفط في الموصل: عرف أصحاب الشركة التركية للنفط (لا علاقة لذلك بتركيا) أنَّ كمية النفط الموجودة أكبر مما كان متوقعًا، وحصل جدال بين أصحاب الشركة (الحكومات البريطانية والفرنسية والأميركية) في ما يتعلق بمسار الأنابيب (ص ١٥٣). وكان هناك مساران محتملان للنفط: أحدهما يمرُّ عبر سوريا إلى طرابلس (وهذا ما تفضله فرنسا) والآخر يمرُّ عبر الأردن إلى حيفا (وهذا ما تفضله بريطانيا)، وقد كان المسار الفرنسي أرخص والمسار البريطاني آمن (ص ١٥٧). واشتد التنافس بين الطرفين، وكانت أميركا تدعم الفرنسيين. إلَّا أنَّ البريطانيين ابتكروا خطة؛ فقد وعدوا نوري السعيد بالاستقلال في حال اعتماد مسارهم، وطمأنوه بأنَّ الحكومة العراقية لا تُعارض أيَّ مسار يعبر الأراضي السورية (ص ١٦١). وبناءً على ذلك اكتمل مشروع أنابيب النفط سنة ١٩٣٤ (ص ١٦٣).

قيام أول ثورة ضدَّ بريطانيا في فلسطين ١٩٣٦: بدأت الثورة عندما قُتل يهوديان في ريحانا واستهدفت أنابيب النفط في الأردن، وصارت الأمور تجري بعكس إرادة بريطانيا، وahan دور فرنسا المتمثل بمنح الثوار اللجوء السياسي في سوريا (ص ١٦٤). وثار العرب لتزايد هجرة اليهود إلى فلسطين وطردهم الفلاحين بعد شراء أراضيهم (ص ١٦٦ - ١٦٧). وكان الحاج أمين الحسيني صاحب علاقات طيبة بالبريطانيين، ولكنَّ تغير الأمر بعد استشهاد عز الدين القسام عام ١٩٣٥، فطالب بإضراب عام وسمح بالعنف (ص ١٦٩ - ١٧٠). ولجأ العرب في البداية إلى حرب العصابات؛ لأنه لم تكن لديهم القدرة على مواجهة بريطانيا مباشرة (ص ١٧٠). وبعد فترة ازداد انتشار الكفاح وكبرت قدرات العرب العسكرية مما اضطرَّ بريطانيا إلى أن تعد المفتي بأن تُرسل إليه جنَّة ملكية لبحث مطالب الفلسطينيين إن طالب الثوار بترك السلاح. وانتهت الثورة مباشرة بعد طلبه ذلك منهم، فجعل البريطانيون يتساءلون عن دوره؛ فلقد كان أكبر مما كانوا يتوقعون (ص ١٧٢).

الأحداث في فلسطين بعد فشل اللجنة الملكية في إرضاء العرب: اكتشفت بريطانيا أنَّ هناك خليفة سوريَّة تعمل على محاربتها في فلسطين ولكنها فشلت في كشف هدفها إلى أن قُتل المسؤول أندروس في الناصرة، وحينئذٍ ردَّ البريطانيون بتأجير قنص عربي لمنع المُتسللين بين سوريا وفلسطين (ص ١٧٨)، وابتكروا خطة بناء جدار كبير يفصل سوريا عن فلسطين وزيادة عدد الشرطة وعدم التركيز كثيرًا على شروط الانضمام كالقدرة على القراءة مثلاً؛ حتى يكسبوا أكبر عدد ممكن (ص ١٨٣). واضطرَّ البريطانيون إلى الاعتماد على اليهود

الأردن؛ فاقترح هربرت صامويل أن ينضمَّ الأردن إلى فلسطين ويصبح تحت الانتداب البريطاني مباشرة. في حين فضَّل لورنس وتشترشل أن يبقى الأردن صمامَ أمانٍ إن لم ينجح المشروع الاستيطاني في فلسطين (ص ١٢٣). وفي ٢٨ آب/ أغسطس ١٩٢٠ تولَّى الملك فيصل حكم العراق، وقد أغضب هذا الأمر الفرنسيين.

ثورة الدروز: رأى الفرنسيون أنَّ الطريقة الوحيدة التي تمكَّنهم من فرض سيطرتهم هو الاستيلاء على الجبل فدخلوا بجيشهم وولَّوا جابريل كابريري (ص ١٣٣ - ١٣٤). واشتكى الكثير من معاملة كابريري لهم؛ فقد ذهب سلطان باشا الأطرش، مثلاً، ليشتكى إلى الوالي سرفيل في بيروت، ولكنه رفض مقابلته فنار الدروز (ص ١٣٥ - ١٣٦) ونجحوا في طرد الفرنسيين من السويداء، إلَّا أنَّ الجزال جاملن تمكَّن من استرجاعها في الشتاء، فيما بقي الجبل تحت سيطرة الثوار حتى الربيع (ص ١٣٩). وابتكر الثوار خطة خطَّف ساريل من دمشق، ودخلوا المدينة، ولكنَّ الفرنسيين ضربوها بالمدافع حتى تمكَّنوا من تشتيت صفوف الثوار، ونتيجةً لذلك دُمِّر معظم الحي التجاري القديم في دمشق (ص ١٣٩).

الاستراتيجية الفرنسية للقضاء على ثورة الدروز: ظلَّ الفرنسيون أنه كانت هناك أيد خفية تحرك الدروز؛ لأنَّه كانت لديهم خبرات تنظيمية عالية، وأسلحة كثيرة، ولم يكن ينقصهم الغذاء، إضافةً إلى أنَّ صحيفة التايمس اللندنية كانت تنقل أخبار الدروز، حتى من جهة الفرنسيين أنفسهم. وبسبب هذه الأمور كلَّها وجَّهوا إصبع الاتهام نحو بريطانيا (ص ١٤٠ - ١٤١). وفي ديسمبر ١٩٢٥ وصل دي جوفنل إلى دمشق ليستبدل ساريل. وظلَّ التفاوض الدبلوماسي مع الدروز لحلَّ المشكلات، وهذا لم يمنع تشارل أندري (نائب جاملين) من استخدام العنف للسيطرة على دمشق (ص ١٤٥). وبعد سياسة دي جوفنل الدبلوماسية خفَّت حدَّة العداء الدروزي لفرنسا، ولكن الثورة استمرت؛ لأنَّه كان للثوار ملاذٌ آمن في الأردن، وكان البريطانيون يعدُّون كلَّ المقاتلين العابرين للحدود لاجئين سياسيين. ولم تؤدِّ المفاوضات الفرنسية - البريطانية إلى نتيجة (ص ١٤٨ - ١٤٩)، وانتهت ثورة الدروز عندما قرَّر البريطانيون إغلاق مخيم الأزرق في الأردن سنة ١٩٢٧. وكان هناك سببان أساسيان لهذه الخطوة: فالسبب الأول هو تقدُّم الملك عبد العزيز في السعودية الذي مثَّل خطرًا بالنسبة إلى بريطانيا، ولا سيما أنها خشيت أن يتحالف الدروز معه. وأمَّا السبب الثاني فهو أنَّ بريطانيا لم تُردَّ أن تتخلى فرنسا عن الانتداب حتى في حال تصاعد الضغط عليها؛ وذلك حتى لا يُطالبها العراق وفلسطين والأردن بالمعاملة نفسها (ص ١٥٠ - ١٥١).

٩ حزيران/ يونيو دخلت لبنان (ص ٢١٥)، وانقسم الجيش الذي دخل سوريا إلى قسمين. وقد كان هدف الشقّ الأيسر المُكوّن من الأستراليين هو بيروت، وأما هدف الشقّ الأيمن المُكوّن من البريطانيين والهولنديين والفرنسيين فهو دمشق (ص ٢١٦). وكانت مقاومة الفيشيين شرسةً، وقد استخدموا المدافع وما بقيَ لهم من طائرات، واستطاعوا تدمير مقرّ القوات الفرنسية الحرة (ص ٢١٨ - ٢١٩)، وفتحت بريطانيا جبهةً شرقيةً على الفيشيين عندما أرسلت جيشاً هندیّاً تجاه حلب، ودخل جيش الملك عبد الله الحرب متوجّهاً نحو تدمر، فلم تستطع حكومة فيشي المقاومة في كلّ الجبهات وتراجعت قوّاتها، وسقطت دمشق في ٢٣ حزيران/ يونيو (ص ٢٢٠).

الدبلوماسية البريطانية الفرنسية المتعلقة بسوريا: طالبت القبائل العربية بريطانيا بالتدخل لأنها غضبت من عدم التزام فرنسا بوعودها واستخدامها للعنف ضدهم. وظنت بريطانيا أنّ إرضاء القبائل أهمّ من إرضاء الفرنسيين؛ فقد توقعت أن يتقدّم الجيش الألماني عبر شرق سوريا الذي كان للقبائل فيه نفوذ (ص ٢٢٦). وطالب تشرشل دي غول بتسليم الإدارة في سوريا إلى السوريين ومنحهم استقلالهم، مقابل عقد تحالف إستراتيجي بين سوريا وفرنسا. وكان من حُسن حظ دي غول أن رَفَضَ السوريون التفاوض معه؛ لأنه ليس رئيساً لفرنسا (ص ٢٢٩). وهكذا أصرّ تشرشل على ألاّ تتدخل المسائل القانونية في استقلال لبنان وسوريا. ونتيجةً للغطّ منح سوريا ولبنان الاستقلال، إلّا أنّ اختيار فرنسا رجالها لإدارة هذين البلدين (ص ٢٣٠) أدّى إلى غضب القبائل التي أرسلت إلى غلوب وفدّاً في عمّان أخبره بأنّ وقوف بريطانيا إلى جانبهم سيضمن لهم خطوط الإمداد في حال حدوث احتلال ألماني (ص ٢٣٠)، ومن ثمّة أرسلت بريطانيا سبيرس مندوباً إلى بيروت، لإيجاد حلّ للخروج من الأزمة (ص ٢٣٢).

سياسات سبيرس لقلب الطاولة على فرنسا: بدأ سبيرس ضغطه على الفرنسيين بفرضه على كارتو الانتخابات المبكرة، فغضب دي غول؛ لأنه عرف أنّ حكومة النقاش وتاج الدين لن تنتجاً في الانتخابات، وخاف أن يُضعف الخبر شرعيّتهم (ص ٢٣٨ - ٢٣٩). وانتقد دي غول تقدّم رومل، وأقنع البريطانيين بأنّه من المهمّ عدم زعزعة الوضع في سوريا للتمكّن من مواجهة الجيش الألماني. وبعد الانتصار على رومل رفض دي غول إجراء انتخابات، ورفض دعوة تشرشل له إلى لندن. ولكن تشرشل هدّده بقطع معونة بريطانيا عن الجيش الفرنسي الحر إن لم يأت. وفي لندن رَفَضَ دي غول مرّةً أخرى إجراء الانتخابات، فقطع عنه تشرشل الاتصال بالعالم الخارجي حتى وافق على دعوته.

الذين كانوا معتادين أن يُفرغوا ذخيرتهم بسرعة في القتال (ص ١٨٧)، وفشلت خطة بريطانيا واعترف المندوب السامي هارولد مكمايكل بأنّ الثورة "ظلت حيةً بجنود أجنب يساندتهم فلسطينيون، أمّا الآن فقد انعكس الوضع" (ص ١٩٠).

أعمال بريطانيا لإرضاء العرب: كان العنف منتشرًا جدًّا في فلسطين سنة ١٩٣٨، ولكنّ بريطانيا لم تكن قادرةً على إرسال المزيد من التعزيزات بسبب احتلال هتلر سودتن لاند، وبسبب الخوف من وقوع حرب في أوروبا أيضًا (ص ١٩٣). وعرفت بريطانيا أنّ الحلّ الوحيد هو التخلي عن خطة التقسيم ولكنها قررت عدم نشر الخبر حتى تكون لها الكفة العليا في الحرب (ص ١٩٤). ثمّ إنها وجدت الحلّ في تهدئة فلسطين بسوريا؛ إذ إنّها وعدت الوطنيين السوريين بأنّ تدعم استقلالهم في حال تخلّهم عن فلسطين (ص ١٩٥). وعرضت في نيسان/ أبريل ١٩٣٩ الورقة البيضاء التي منعت مهاجرة أكثر من ١٥٠٠٠ يهودي إلى فلسطين سنويًا، وقلّلت من حقهم في شراء الأراضي العربية، فعاد الهدوء إلى فلسطين (ص ١٩٦).

التعامل البريطاني مع دي غول لإخراج حكومة فيشي من الشام: في عام ١٩٤٠ دخل الجيش الألماني إلى فرنسا وهرب تشارل دي غول على متن طائرة بريطانية إلى لندن مع رونالد سبيرس الذي قدّمه لتشرشل على أنّه رمز المقاومة الفرنسية. واتصل دي غول بقائد جيش الشام الفرنسي ليكسب ٣٧٠٠٠ مقاتل تابعين لهم. غير أنّ الجيش قرّر الانضمام إلى حكومة فيشي (ص ٢٠٥)، وخشي البريطانيون أن تسمح حكومة فيشي في الشام للألمان باستخدام قواعدهم الجوية، ولكن لم يكن لديهم الجنود لإسقاط هذه الحكومة؛ لأنّ جيشهم كان منشغلًا بحماية مصر من تقدم رومل المرتقب (ص ٢٠٩). وقامت ثورة رشيد علي الجيلاني في العراق الذي تحالف مع الألمان، فأدّى هذا التحالف إلى ارتباك شديد بلندن؛ فقد ساد الخوف من أن تستغلّ ألمانيا هذه الفرصة فتهاجم قواتهم من الشام والعراق، لذا قرّروا ضرب القواعد الجوية في سوريا، وبدؤوا بالتخطيط لاحتلال سوريا لمنع أيّ تقدّم ألماني (ص ٢١٠ - ٢١١).

الاستيلاء البريطاني-الفرنسي على الشام: طرح القيادي في الجيش الفرنسي الحر كارتو فكرة وعُد فرنسا كلاً من سوريا ولبنان بالاستقلال التامّ من أجل كسبهم ضدّ حكومة فيشي. وقد أعجبت هذه الفكرة دي غول؛ لأنه رأى أنّ هذا هو الحلّ الوحيد لإخراج الفيشيين (ص ٢١٢). واقترح إيدن على تشرشل فكرةً مفادها أن تعدّ بريطانيا العرب في سوريا ولبنان بمنحهم استقلالهم، بغضّ النظر عن فرنسا (ص ٢١٤). وفي ٨ حزيران/ يونيو ١٩٤١ عبرت القوات البريطانية - الفرنسية الحدود السورية، وفي

(ص ٢٧٧). وفي حزيران/ يونيو ١٩٤٤ التقى سبيرس رئيس الوزراء السوري وقال له إنَّ بريطانيا ستدعم أي نوع من الوحدة العربية تختارها حكومته، على أن يوقَّع معها اتفاقياتٍ دفاعيةً واقتصاديةً، وألا يترك دوراً للفرنسيين في المنطقة. وعرف الفرنسيون هذه المقابلة، وبناءً على ذلك رفضوا تسليم قيادة القوات العسكرية السورية إلى حكومته. فردت بريطانيا بتزويدها لحكومته بسبعة آلاف بندقية ومئات الأسلحة الأتوماتيكية (ص ٢٨٠ - ٢٨١).

اغتيال اليهود للورد موين وتداعياته: اغتال عضوان في السترن جانج اللورد موين وسائقة في القاهرة، وتمكنت الشرطة المصرية من قتل أحدهما وحُبس الآخر (ص ٢٨٦). واكتشفت بريطانيا أنَّ عضواً في الاستخبارات الفرنسية اسمه أليسندري كان يدعم عصاة السترن، وأنَّ هدف فرنسا كان زعزعة الاستقرار حتى لا تتمكن بريطانيا من دعم الوحدة العربية ولا سيما أنَّ نوري السعيد والممثل السوري جمال مردام قد اتفقا مع اللورد موين في القاهرة على قيام دولة هاشمية تشمل العراق والأردن وسوريا (ص ٢٨٩). وأثناء وفاة موين تغيرت السياسة الخارجية البريطانية؛ لأنَّ الوزير الجديد لم يتمكن من الوصول إلى النتائج نفسها مع العرب، وقال: إنَّ العرب على خلافٍ في كلِّ المواضيع إلا موضوع طُرْد اليهود من فلسطين، والفرنسيين من سوريا (ص ٢٩٣).

محاولات فرنسا إعادة فرض نفوذها في الشام: طالبت الحكومة السورية فرنسا بتسليم الجيش السوري التابع لفرنسا، فرفض دي غول هذا الطلب؛ لأنَّ الجيش كان يُمثِّل السواد الأعظم من جيش فرنسا في الشام، ولأنَّه جاءته تقارير مفادها أنَّ انشغال بريطانيا بمعارك أخرى يمنعه من التدخل في الشام (ص ٢٩٧ - ٢٩٩).

وحرصاً على ألا يكون السوريون ضدهم بسبب القرار، أرسلت فرنسا تعزيزاتٍ إلى الشام (ص ٣٠٠) وقالت إنَّها لن تُسلم سوريا سلطةً على الجنود السوريين إلا بعد توقيع اتفاقٍ يضمن لفرنسا قواعدً عسكريةً. ورفضت الحكومة السورية الطلب، ولكن مقتل ثلاثة جنود فرنسيين في حلب أعطى فرنسا ذريعةً للتدخل (ص ٣٠٢). وقصف القائد العسكري باجيت دمشق في ٢٩ أيار/ مايو وسادت الفوضى، وحدثت مجازر كثيرة؛ ففي البرلمان على سبيل المثال قُتل جميع أفراد الحراسة على يد الجيش السنغالي التابع لفرنسا، في حين تمكَّن أعضاء البرلمان من الفرار (ص ٣٠٣). وبعد اجتماعٍ إلى مجلس الوزراء البريطاني، في ٣١ أيار/ مايو، وجَّه تشرشل لفرنسا تحذيراً: فإمَّا أن توقف إطلاق النار وإمَّا أن تواجه القوات البريطانية. وفي الصباح الموالي، تقهقرت فرنسا من دمشق أثناء دخول الدبابات البريطانية (ص ٣٠٦)، وراح

الانتخابات في سوريا ولبنان في ١٩٤٣: كانت مهمّة سبيرس الأساسية هي التأكّد من عدم تزوير فرنسا للانتخابات. وخشيت بريطانيا من وقوع عنف في سوريا إن لم تكن الانتخابات نزيهةً. واجتمع مجلس الحرب في الشرق الأوسط البريطاني في القاهرة، في أيار/ مايو ١٩٤٣، وقرّر دعم اتحاد عربي يضم سوريا والأردن ولبنان وجزءاً من فلسطين وإعطاء باقي فلسطين لليهود؛ وذلك لإرضاء العرب وتفادي الحرب في فلسطين (ص ٢٤٦). وعندما وصل الخبر لكارثو قرّر أن يقاوم الوحدة العربية، واتفق مع هاشم بيك الأتاسي على أن تدعمه فرنسا في الانتخابات مقابل توقيع وثيقة تحالف عند وصوله إلى الحكم (ص ٢٤٦ - ٢٤٧). وقرر الفرنسيون أن يغيروا القانون الانتخابي في لبنان ليعطوا المسيحيين مقاعد أكثر من غيرهم، وكانت فرنسا تدعم ريموند أدى، في حين كانت بريطانيا تدعم بشارة الخوري (ص ٢٥١)، وقد فاز الخوري في الانتخابات في ٢١ أيلول/ سبتمبر.

تأزم العلاقات البريطانية الفرنسية بعد الانتخابات في سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣: قام الفرنسيون بانقلاب عسكري داخل لبنان، في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٣، وسجنوا بشارة الخوري ورياض الصلح، وعيّنوا ريموند أدى رئيساً (ص ٢٥٦). فغضب تشرشل من الانقلاب وأرسل تهديداً لفرنسا، في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر، محذراً إيَّها من دخول بريطانيا إن لم تُطلق فرنسا سراح جميع الوزراء في صباح اليوم التالي، وسريعاً خضعت فرنسا للضغط، وخصوصاً أنَّه لم يكن من المطلوب إعادة تعيينهم (ص ٢٦١)، ولكن بعد الإفراج عنهم طالبت بريطانيا بإعادة تعيينهم، فخضعت فرنسا للضغط مرّةً أخرى (ص ٢٦٢).

تعامل فرنسا مع الجماعات الإرهابية اليهودية للانتقام من بريطانيا: كشفت بريطانيا تعامل فرنسا مع عصاة السترن جانج سنة ١٩٤٢ عندما رأت الاستخبارات الفرنسية تستقبل الإرهابيين الهاربين من فلسطين عند الحدود اللبنانية (ص ٢٦٩). وقد كانت حكومة فيشي أكبر مصدرٍ للأسلحة إلى اليهود، وعلى الرّغم من معاهدة اليهود لألمانيا فإنَّها لم تمنع من تسلُّحهم؛ لأنها عرفت أنَّ الأسلحة ستوجه نحو بريطانيا (ص ٢٧٠).

محاولات بريطانيا إيجاد توازن في سياستها الخارجية بين دعم وحدة عربية ودعم دولة يهودية: كان اللورد موين (وزير الدولة لدى القاهرة) مؤيداً لقيام وحدة عربية، وكان يرى أنَّ إرضاء العرب أهمُّ لبريطانيا من إرضاء اليهود؛ لذا طرح فكرة هجرة اليهود إلى لبنان وسوريا والأردن وفلسطين حتى لا يكونوا أغلبيةً في أي دولة، وحتى لا يثيروا غضب العرب (ص ٢٧٦ - ٢٧٧). واجتمع مجلس الوزراء البريطاني عام ١٩٤٤ ووافق اللورد على ضرورة إقامة دولة عربية موحّدة، غير أنه أصرَّ على تقسيم فلسطين.

(ص ٣٤٠ - ٣٤١). وفي آذار/ مارس ١٩٤٧ قرّرت الحكومة الفرنسية ألاّ تدقّق في صحّة مستندات اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين؛ ممّا أدّى إلى اتّخاذ يهود أوروبا فرنسا نقطة عبورٍ إلى فلسطين (ص ٣٤٤).

فترة ما قبل انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين: قرر بيفن في شباط/ فبراير ١٩٤٧ تحويل ملفّ فلسطين إلى الأمم المتحدة منبّهًا إلى أنّ هذا الأمر لا يعني انتهاء الانتداب، بل يعني البحث عن تحسينه. وما إنْ عرف اليهود أنّ بريطانيا لا ترغب في الخروج حتى بدؤوا القيام بأعمال إرهابية ضدّ البريطانيين (ص ٣٤٩ - ٣٥٠). فنصح وزير المالية البريطاني رئيس الوزراء بأن تتراجع قواته من فلسطين مهما كانت نتيجة اقتراحات الأمم المتحدة (ص ٣٥٣). واقترحت لجنة الأمم المتحدة تقسيم فلسطين في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧، ولكن بريطانيا لم ترَ نهايةً سلميةً لهذا التقسيم؛ فقررت أنّ تتراجع في أيار/ مايو من ١٩٤٨ (ص ٣٥٤) لتنفيذ قرار الأمم المتحدة. وكان مؤيدو القرار في حاجة إلى ثلثي الأصوات. غير أنّ مؤيدي القرار كانوا أقلّ عددًا، وأمّا فرنسا فلم تكن قرّرت موقفها بعد؛ لأنها كانت تخشى ردّة الفعل في المغرب العربي إن هي صوّتت لفائدة اليهود. ولكن مستشار ترومان للشؤون الاقتصادية باروخ ذهب إلى وزير خارجية فرنسا، وقال له: إنّ دُعم أميركا لفرنسا بخطة المارشال مرهونة بتأييد فرنسا لتقسيم فلسطين (ص ٣٥٤ - ٣٥٥). فقررت فرنسا دُعم التقسيم؛ لأنّ مشاكلها الاقتصادية لم تسمح لهم بالتخلي عن دعم خطة مارشال (ص ٣٥٦)، وجرى التصويت في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨، وحصل المؤيدون على ٣٣ صوتًا مقابل ١٣ معارضًا، في حين امتنع عشرة أعضاء عن التصويت (ص ٣٥٦). وبدأ اليهود الهجمات على القرى العربية في اليوم التالي، وعقدوا صفقات سلاح كبيرة مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (ص ٣٥٥ - ٣٥٦). وبعد توتر العنف تراجعت فرنسا عن دعمها للتقسيم وبدأت أميركا مراجعة موقفها واقترحت على بريطانيا أن تكون لها وصاية مدعومة من الأمم المتحدة على فلسطين. ولكن بريطانيا رفضت ذلك (ص ٣٦٢). ونشبت معركة بين العرب واليهود في ١ نيسان/ أبريل. وكانت القوات العربية الأكثر عددًا. غير أنّ انقسامها رجّح كفة اليهود (ص ٣٦٤ - ٣٦٥). وبعد المعركة قرّر اليهود تهجير العرب وقتل من بقي منهم، ناشرين شعاراتٍ تقول: "اقتلوا كلّ عربي تواجهونه، احرقوا كلّ ممتلكاتهم، واقتلوا أبوابهم بالمتفجرات" (ص ٣٦٦)، وهكذا ضاعت فلسطين.

ضحية القصف ٨٠٠ سوري، ودُمّرت مبانٍ كثيرة في دمشق القديمة (ص ٣٠٦)، وأدّى دخول الدبابات البريطانية إلى دمشق إلى نهاية دور فرنسا في سوريا ولبنان، وحصلت الحكومة السورية على الجيش السوري. ولكن الخروج الفرنسي فتح الباب لتقارب يهودي - فرنسي ضارّ بمصالح العرب وبريطانيا (ص ٣٠٩).

سياسة بريطانيا تجاه هجرة اليهود إلى فلسطين ودخول أميركا لاعبًا أساسيًا إلى الساحة: كان الرئيس الأمريكي ترومان مُصرًا على قيام دولة يهودية في إسرائيل، وتوقع ترومان وجود حليف له في بريطانيا هو وزير الخارجية بيفن؛ لأنّ هذا الوزير كان منحازًا إلى الصهيونية. ولكنه عندما دخل الوزارة غيّر رأيه فتغيّرت سياسة بريطانيا بتغيّر رأي بيفن. وعرف بن غوريون أنّ بريطانيا لن تؤيّد سياساته؛ لذا أمر الهاغانا بالتعامل مع عصابات السترن والأرغون لتكوين جبهة موحدة من أجل إخراج بريطانيا من فلسطين (ص ٣١٥ - ٣١٦). أمّا بريطانيا فقد عرفت أنّ الوكالة اليهودية كانت تتعامل مع العصابات اليهودية، فقررت مداومة مقرّهم (ص ٣٢٠).

إنشاء لوبي يهودي داخل أميركا للضغط على الحكومة وكسب الرأي العام لقيام دولة يهودية في فلسطين: أسّس اللجنة الأميركية لفلسطين الحرّة شخص سمّى نفسه آرثر برغسون، وكان اسمه الحقيقي هو هليل كوك، وقد كان قياديًا كبيرًا في الأرغون (ص ٣٢٨). واستخدمت اللجنة جميع الوسائل لكسب الرأي العام، ونجحت إلى حدّ أنّ الأحزاب الأميركية صارت تتنافس في ما بينها على تأييد اليهود؛ ومن ثمّة خلقت شرخًا في العلاقات البريطانية الأميركية (ص ٣٣٢). وفي ديسمبر ١٩٤٦ نجح كوك في تكوين لجنة أخرى، في باريس، كسبت سيمون دي بوفوار وجون بول سارتر عضوين لها (ص ٣٣٢). وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الحكومة الأميركية لمنع هذه اللجنة من بثّ الإعلانات في الإعلام، غير أنها فشلت في ذلك.

الفصل الثامن والعشرون: French and Zionist Intrigues

محور هذا الفصل هو تأمر فرنسا مع الصهاينة لإضعاف بريطانيا في فلسطين؛ فلقد حاولت العصابات اليهودية تفجير مكتب حكومي في لندن، ولكنّ المحاولة فشلت، وكشفت بريطانيا من خلال الأدوات المستخدمة في القنبلة أنها صنّعت في فرنسا (ص ٣٣٦ - ٣٣٧)؛ فطالبت الفرنسيين بتسليم المتهمين. إلّا أنّ فرنسا لم تبذل جهدًا كبيرًا في القبض عليهم؛ لأنها كانت متفكّة مع العصابات على أنه يمكنهم أن يتخذوا من فرنسا ملجأ، طالما أنهم لا يقومون بعمليات داخلها (ص ٣٤٠). وفي الفترة نفسها أرسلت العصابة اليهودية رسائل مفخخة إلى عدد كثير من أعضاء الحكومة البريطانية، ولكن لم تنفجر أي رسالة